حول دراسة في

جغرافية المملكة العر

لايعزب عن بال كل متعلم في الجزيرة العربية مدى الإهمال الذي يلف معظم أقاليمها . . والإبهام الذي يضرب أطنابه على تاريخها وآثارها وثقافتها من شعر وأساطير وقصص وأمثال وأناشيد وغيرها من الضروب « الفلكلورية » المنطوقة وغير المنطوقة ، وتطور لهجاتها ، وقدر صلة تلك اللهجات باللغة العربية الفصحى .

...عودية "مدينة بريدة"

للدكتور محمد السليمان السديس
أستاذ مساعد – جامعة الملك عبد العزيز
مكة المكرمة

إن المواطن يتطلع برغبة وشغف شديدين إلى معرفة الكثير عن كل مدينة وبلدة في هذه الجزيرة . . وتحدوه أشواق لمعرفة تاريخها . . من أول من بناها وكيف ؟ وما اسمها القديم ؟ وما سبب تسميتها ؛؟ وما مدى وثاقة صلتها بالتاريخ العربي والإسلامي ؟ وماذا خلَّفت لنا أجيالها المتتالية من ثمرات تجاربها من ثقافة أو أدب أو فن أو علم أو عبرة تاريخية ؟

إن الحظ قد يُنْجِدُ هذا الباحث المتسائل فيَجمَعُه بمن يعرِّفه على بعض ما جهل ، ولكن في أغلب الأحيان تبقى علامات الاستفهام عالقةً بذهنه لا تحظى بجواب .

ولو كان الغموض منحصراً فيما عفَّاه الزمن ومحت ذكراه البيض والسود ، وأوغل في أعماق الزمن لما كان للاستغراب مكان ، ولقنع المرء بما يتيسر له الوصول إليه ، وما يمكن انتشاله من براثن الدهر ومتون صفحات كتب التراث ، لكنّ ما يشدّه له الانسان ويأسى له معاً أن أحوالا وشئوناً حديثة الوقوع وذات مساس وثيق بمدن وأقاليم الجزيرة طواها النسيان أو كاده لقلة التفات الناس إليها وإيفاء ما هي قمينة به من اهتمام وما يليق بها من عناية .

على أن تباشير الفجر بدأت تلوح للعيان ، فصرف بعض الأدباء اهتمامهم إلى هذا الجانب وبدأت أقسام الجغرافيا في جامعاتنا تعي واجبها نحوه . . واختار بعض الباحثين مناطق معينة جعلوها مواضيع لبحوثهم العلمية في الجامعات أو ألفوا عنها كتبا وكتبوا بحوثا ومقالات .

وما كانت منطقة القصيم بِدعاً من الأقاليم المذكورة فإن ما قلناه ينطبق عليها تماماً . . إنّ الجهل يقف حائلاً منيعاً بيننا وبين الكثير مما نود معرفته عنها وعن مدنها وقراها وجبالها ، وعلى الرغم مما كتبه عنها

بعض المؤرخين والجغرافيين كابن بشر وابن غنّام وابن عيسى وابن بسام ومقبل الذكير وابن بليهد رحمهم الله وما كتبه ويكتبه الشيخ محمد العبودي الذي ملأ مكانا خالياً واسعاً بكتاباته المحققة المدققة .

وقد أدلى أيضاً الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الشريف بدلوه وألف كتابا عن منطقة عنيزة بعنوان (منطقة عنيزة . . دراسة إقليمية) حوى الكثير من المعلومات النافعة التي جاءت في أوانها .

كما كتب بحثاً ذا عشرين صفحة عن مدينة بريدة (في مجلة الدارة ، العدد الأول ، السنة الخامسة ، ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ – مارس ١٩٧٩ م ص ٢٥٢ – ٢٧٢) بعنوان « دراسات في جغرافية المملكة العربية السعودية – مدينة بريدة » ومثلما أن الدكتور الشريف طرق موضوعا بكراً أو شبه بكر لما ألف كتابه عن منطقة عنيزة فإنّه ببحثه هذا أيضاً تناول موضوعاً فتيّاً ، وسلك درباً غير مأثور كثيرا ، فأفاد القاريء وأمتعه ، وأدّى حقّاً عليه هو حق على كل عربي نحو بقعة من هذه الجزيرة الأم التي انطلق منها الأجداد فنشروا الإسلام في أماكن قصيّة . . ووطدوا القدم العربية في بقاع نازحة الغور كان الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان . . وصنعوا لنا أمجادا عظيمة باليتنا نتخذ منها مشاعل هادية مشعّة نستضيء بنورها ، ولا نكتفي بترديد القول ترديداً أباهً مملاً عما صنع أقدمونا فتلهينا صنائعهم عن صنع أي شيء كما ألهت التغلبيين عن المكارم قصيدةُ شاعرهم ابنِ كلثوم .

استهل الدكتور الشريف بحثه بتعريف موجز لبريدة الحالية ومكانها على الخريطة في المملكة والتركيب الاجتماعي لقاطنيها .

وبعد أن أدخل القاريء إلى الموضوع تقهقر ليحدثه عن تاريخ بريدة منذ العصر الجاهلي ، ثم عن موقعها الجغرافي . . ثم انتقل إلى الحديث عن سكانها والظروف التي ساعدت على ازدياد عددهم ، والتغيير الذي طرأ على شكل المدينة ودُورها وأسواقها ، والتطور الحضاري الذي زحف إليها وبعد ذلك قارن بين بريدة في الماضي وبريدة الحديثة ، ونفذ إلى أهم ميدان تتميز به بريدة خاصة والقصيم عامة ، أعني الزراعة والثروة المائية فروى قصة اكتشاف مياه بريدة الباطنية العميقة عام ١٩٥٤م ، وأشار إلى عمليات الحفر التي تتابعت منذ ذلك الحين وضياع كميات من المياه سدى لعدم استيعابها مما خلق مشكلة تملّح التربة . ثم تحدث عن وضع بريدة الإداري وتجاوز ذلك إلى الحديث عن عنيزة !

ولم يغفل الكاتب عن الإلمام ولو سريعاً بالتعليم ولكنه قصر اهتمامه على التعليم الحكومي ولم يعِر الكتاتيب التي كان يزخر بها الجامع الكبير في بريدة في الماضي القريب ما تستحقه من التفات . . مع أن بمقدرة أي مهتم بالتعليم الرسمي العثور على كل ما يريده من معلومات بأيسر السبل . . أما الذي يتطلع إليه المرء بشغف فهو النمط القديم من التعليم في الجوامع والمساجد وطرقه ومجالات اهتماماته وأماكن انعقاد الكتاتيب ، وأسماء العلماء الذين كانوا يقومون بالتدريس ، وبعض أسماء الطلبة الذين تعلموا بتلك الطريقة وما آل بهم الأمر فيما بعد !

ثم وجه الأستاذ الدكتور الشريف اهتمامه إلى المواصلات التي تربط بريدة بما حولها بل وبالمناطق النائية عنها ، من برية وجوية . . ومرة أخرى وجد الباحث الطريق ميسَّرا جداً فسلكه . . إنّ أيّ فلاح في القصيم وكثيرين من البدو خارجه لا يجدون ــ صعوبة تذكر في معرفة الطرق التي تربط بريدة والقصيم حالياً بالمناطق الأخرى . إن ما تجهله الغالبية وتعلمه قلة قليلة

المسجد) معلقة في البلاطة الوسطى... يندرج في هذه العشرة النواقيس المكففة بالنحاس»[١٧].

وفي موضع آخر يذكر الجزنائي نصًا آخر يتعلق بناقوس جديد حمل من الأندلس إلى المغرب في عصر أمير المسلمين أبو الحسن المريني عندما تمكن ولده أبو مالك من فتح مدينة جبل الفتح عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م من أيدي الإسبان[١٨]. وانتزع من كنيسته الناقوس الكبير الذي أمر السلطان أبو الحسن المريني بعد ذلك بتحويله إلى ثريا كما أمر بتعليقه في جامع القرويين. وتعظيمًا لهذا الفتح فقد أمر السلطان أبو الحسن المريني معماره ببناء قبة خاصة في البلاطة الوسطى بظلة القبلة لتعليقه بها[١٩].

فلو أضفنا النواقيس الموحدية التسعة التي أخذت من مدينة وبذة بالأندلس إلى الناقوس المريني الذي أخذ من مدينة جبل طارق بالأندلس أيضًا فسوف يصبح عدد النواقيس المشار إليها تاريخيًا ووفقًا للنصوص السابقة عشرة نواقيس، يوجد منها بجامع القرويين وحده سبعة نواقيس من بينها الناقوس المريني. وهذا العدد يتفق مع ماذكره الجزنائي بقوله: «**ويندرج في العشر** (أي العشر ثريات المعلقة ببلاطة المحراب) **ثريات النواقيس**»[٢٠] أي لم يشر الجزنائي في نصه السابق على أن جميعهم من النواقيس.

كما يوجد ناقوس آخر معلق في البلاطة الوسطى بجامع تازي ولكنه لم تشر إليه المصادر أو البحوث الحديثة (لوحة رقم ١٣، ١٤).

وبإضافة ناقوس جامع تازي يصبح عدد النواقيس الباقية ثمانية فقط، وهذا العدد قريب من رقم العشرة نواقيس المأخوذة من الأندلس، إذا ماوضعنا في حساباتنا عوامل الدهر وكذلك الإهمال الذي يصيب الكثير من تراثنا الحضاري، كما كان البعض منها يصهر ويعاد تشكيلها في أدوات جديدة[٢١] ثم تتوالى بعد ذلك الإشارات التاريخية وبخاصة نصوص الرحالة التي ركزت في وصفها على مجموعة النواقيس التي توجد بجامع القرويين، ومن أهم هذه النصوص: نص الرحالة الوزان الذي وصف ثريات النواقيس بجامع القرويين، فقال: «**وفي الصف المكون من أقواس الوسط وبالأخص التي تؤدي إلى المحراب فيه وحده مئة وخمسون مصباحًا، وهناك ثريات عديدة من البرونز في كل واحدة منها ألف وخمسمائة مصباح**

غير معهودين) ليتك استبدلت بهذا أن تقول (خلق مشاكل في تلك المدن ذات طبيعة وحجم غير معهودين) .

وفي ص ٢٥٨ س ٢ ورد (ولا تقلّ ولا بحال من الأحوال) الواو و « لا » بعد (ولا تقلّ) طفيليتان غير مرحب بهما فلو أخرجتَا لقويت الجملة وصحت .

وفي س ١٤ من الصفحة نفسها ورد (إلى كونها أصبحت) هذا تعبير فيه ثِقَل وركاكة لتتالي فعلين للكينونة . وبديله (إلى أن أصبحت) .

وفي ص ٢٦١ س ٥ و ٦ ورد (هذا بالإضافة إلى جانب وظائف البلدية) . وإيراد عبارتين بمعنى واحد لا مسوِّغ له وعيبه أبين من أن يتطلب أي تعليق .

وأعيدَ ذكر لفظ (العامّ) في الأسطر ٥ و ٦ و ٧ من الصفحة نفسها بصيغة المذكر في س ٥ وبصيغة المؤنث في س ٦ و ٧ .

وفي ص ٢٥٥ جاءت (ماعدا) في س ١٩ و ٢١ .

وليأذن لي الكاتب الكريم أن أذكِّره بما أعرف أنه يعلمه حق العلم وهو أن إعادة اللفظ نفسه في جمل متقاربة من الأمور المعيبة في الكتابة الجيدة .

وفي ص ٢٦٣ س ١١ ورد (وزاد في المنطقة وتَنَوعً) . ما الذي زاد ؟ وما الذي تَنَوَّعَ ؟ لعلك تعني الإنتاج الزراعي ! ؟ إذن قل ذلك !

وفي س ١٤ قال الدكتور الشريف (كمختلف أنواع الخضروات والفواكه) الكاف هنا للتمثيل فكان ينبغي ذكر مثال واحد معين أو مثالين

بعينهما كأن تقول (كالبطاطس والعنب) . أما هذا التمثيل المبهم فهو وعدمه سيان إذ تكفي عنه عبارة (المنتجات الزراعية الجديدة) السابقة له مباشرة .

وفي ص ٢٦٤ س ٢١ قال الدكتور الشريف (وهذا يجعل منطقة بريدة وحدها تملك نحو ٢٠٪ من مساحة الأراضي) . . ، خير من هذا أن تقول (وهذا يعني أن ٢٠٪ من مساحة الأراضي يقع في بريدة) لأن استعمال (تملك) في مثل هذا السياق غير جيد وقد كثر استعمالها حديثاً تأثراً بلفظ الملكية في اللغات الأوربية .

وفي ص ٢٥٣ س ٣ ورد (على بعد ٥٠٣ كم شرق شمال شرق المدينة المنورة) ما معنى هذا الكلام ؟ .

وفي ص ٢٦٧ س ١٠ وردت هذه الجملة (وكانت تضم هذه المدارس . . .) ويجب هنا تأخير الفعل المضارع بحيث يقع بعد (المدارس) أو تقديم (هذه المدارس) على (كانت تضم) .

س ٢٠ ورد (مع أقل نسبة من الضرر) وصحته (بأقل نسبة . . .) .

س ٢٧ ورد (وضعت دراسات بتصريف مياه المطر . .) الصحيح (لتصريف مياه المطر . .) .

أمور لغوية ونحوية

جاء في ص ٢٥٣ س ٥ (عرفت بريدة كمورد . .) وفي ص ٢٥٦ س ١٧ (عرفت كمحطة في طريق حجاج العراق) . الكاف تكون لمعان

عدة : التشبيه كما في (أنت كالسراج) أو التعليل كما في قوله تعالى : (واذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) ، والاستعلاء كما في (كونوا كما أنتم) . والمبادرة كما في (احضرْ كما تعلم) ، والتوكيد كما في قوله تعالى (ليس كمثله شيء) .

أما الكاف هنا فهي ترجمة لكلمة (as) في الإنجليزية ويحسن تجنّب استعمالها .

وفي ص ٢٥٥ س ٨ ورد (الاحتلال التركي المصري عليها) وصحة العبارة (احتلال الأتراك والمصريين إياها) .

س ١٢ ورد (حينما اتّبعتْ للدولة السعودية) صحة الفعل هنا أن يكون بصيغة الثلاثي المجرد فَعِلَ كَفَرِحَ فتكون العبارة (تبعت الدولة السعودية) أو (للدولة السعودية) .

س ٢٤ ورد (الذي اطلعت به) ولعل المراد (اضطلعت به) .

وفي ص ٢٥٦ س ٣ ورد (صعافيك) وصحتها (صعافيق) وتلفظ القاف هنا كلفظ الدال الزاي مجتمعين ساكنتين (دْزْ) على عادة النجديين في لفظها بعض القافات .

س ١٨ استعملت كلمة (المزفلته) وكذلك في ص ٢٦٠ س ١١ وفي ص ٢٦٧ س ١٩ وفي ص ٢٦٩ س ١ ، وفي الحالة الأولى وضعت بين قوسين ومن عادة بعض الكتاب عمل ذلك إذا قصدوا استعمال لفظة بذاتها بسبب في نفس الكاتب كأن يريد ذكرها ذاتها لأدائها مدلولاً لا يعبرّ عنه غيرها ، أو لأن الذاكرة لم تسعفه ببديلة لها . . لكن في الحالات الثلاث

الأخيرة لم تُحَطْ بأي أقواس . . . إن للمرء مندوحة واسعة عنها باستعمال لفظ (المعبدة) الجيد المألوف .

وفي ص ٢٥٧ س ٢٣ و ٢٤ ورد (ويُعتبرَ هذا الرقم كبير جداً) والصواب نصب (كبير) فهي مفعول ثان لـ (يُعتبَر) والمفعول الأول هو اسم الأشارة الذي صار نائباً للفاعل .

وفي ص ٢٦١ س ٤ آثر الباحث الفاضل استعمال لفظة (التليفونات) الأجنبية الأصل والمستعملة في لغة الحديث مع أن لفظة (الهواتف) السائرة الآن تغنينا عنها في لغة الكتابة .

س ٨ استعمل لفظة (الأوتوماتيكية) المجلوب والمتداول في لغة الحديث ، وترك لفظ (الآلية) الأصيل .. وأعاد ذلك في ص ٢٧٠ س١١ .

س ١٨ و ١٩ ورد (بأشجار الأثل المزروعة في الرمال) والأصحّ (المغروسة في الرمال) .

س ٢٤ ورد (١٥٤ موظف) ، ونصب (موظف) محتّم ، فهي تمييز .

س ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ ذكرت (ريال) أربع مرات هكذا خطأ ، والصواب (ريالا) فهي منصوبة لأنها تمييز .

وفي ص ٢٦٩ س ١ ورد (ست طرق مزفلتة اثنتان منها محليتان) إلى هنا والجملة صحيحة ، لكن ورد بعد ذلك (وأربعة منها تتجاوز حدود أقليم القصيم والصواب (أربع منها) .

والطرق جمع طريق تذكر وتؤنث[1] . . لكن لابد من اختيار أمر واحد والاستمرار عليه في الجملة الواحدة .

س ١٠ من الصفحة نفسها وفي ص ٢٧٠ س ٢ ورد (مليدة) وصحتها (مليدا) كما تسمى في القصيم .

س ٧ (من صفحة ٢٧٠) ورد (مشترك) وصحتها (مشتركاً) فهي تمييز .

أخطاء في المفردات : نذكر منها فيما يلي عشرة فقط :

في ص ٢٥٣ س ١٧ ورد (بن أعسر) وصحته (بن أعصر)[2] .

وفي ص ٢٥٦ س٢٦ ورد (مراكزا) وصحتها إفرادُها .

وفي ص ٢٥٧ س٢ ورد (البكرية) وصحتها (البكيرية) .

س ١٨ ورد (لا تتجاوز عدد سكانها) ولا يخفى أن الفعل هنا واجب التذكير .

س ٢١ ورد (مدينة متوسط الحجم) وصحة العبارة لاتخفى .

وفي ص ٢٦٠ س ١٨ ورد (أماكنياتهم) والمراد (إمكانياتهم) .

س ١٧ ورد (طبيعية) والمراد (طبيعة) .

وفي ص ٢٦١ س ٩ ورد (القصم) والمراد (القسم) .

وفي ص ٢٧٠ س ٧ت٨ ورد (بها سبعة خطوط . . . يربط اثنتان منها) ولا يحتاج القاريء إلى لفت نظر إلى موقع الخطأ هنا .